عندما يغيب الضمير المهنى * ٠٠٠

(ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)) ،

سورة الأنعام

مقدمـــــات :

نحن نسمع فى كثير من الأحيان أن فلانا يمكن أن يوصف بأن لديه " ضميرا " ، أو أن ضميره " صاح " ، وآخر بأن ليس لديه " ضمير " ، أو أن ضميره " نائم " ، كناية عن أن الأول يتبع الأصول الأخلاقية وأن الآخر ليس كذلك ٠٠

للوهلة الأولى يمكن أن نزعم بأن هذه التعبيرات خاطئة ، فكل إنسان لديه ضمير ، لكن المهم السؤال : بأى تكوين ؟ وفى أى اتجاه ؟ فالإسرائيلى الذى يقتل ويدمر بالنسبة إلى قيم ثقافته إنسان ذو ضمير ، والفلسطينى الذى يرد فيقاوم مما يترتب عليه تدمير وقتل فى الجانب الإسرائيلى نقدره تقديرا عاليا ونحسبه من ذوى الضمير الوطنى والدينى ٠

فما الحقيقة ؟

الحق أن الضمير هو المستودع الخاص بالقيم الأخلاقية والمعايير المجتمعية ، وهذه القيم ، على الرغم من أننا نصفها بأنها " مطلقة " ، أى مفروض فيها أن تكون عامة لدى الجميع ، لكنها تتحول عند التطبيق إلى " نسبية " ، والنسبية هنا ليست فيها هى فى حد ذاتها ، وإنما فى إلحاق العمل المقصود بها ٠

---

* قدمت إلى المؤتمر السنوى لقسم أصول التربية بتربية الزقازيق ، ٣ مايو ٢٠٠٦

ومن ثم فإن التعبيرات المشار إليها فى البداية ليست فى الحقيقة خاطئة ، وإنما هى تعبير عن أن الضمير ليس يعنى إلا " المثال " المنشود ، ومن ثم فإن الذى يرشى يعد مفتقدا للضمير ، والذى يرفض الغش والتدليس هو بالفعل صاحب ضمير ٠

للتفسير ٠٠وللمحاسبة :

بداية ٠٠ لابد أن ننبه إلى أن أهلنا التربويين هم جزء من نسيج هذا المجتمع الذى ننتسب إليه جميعا ألا وهو المجتمع المصرى ، وأن كل ما يحدث فيه يحدث لهم مثل ما يحدث لسائر قطاعات هذا المجتمع ، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا ٠٠

تلك حقيقة مهمة نرى من الضرورى أن نتذكرها جيدا ونحن نمضى فى قراءة هذه الرؤية ، دون أن تحمل إعلانا بتبرئة أهل التربية اعتمادا على ذلك ، تذكيرا بقول المولى عز وجل (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)) ، سورة الإسراء ٠

ومن ثم ، فإن " المسئولية المجتمعية " ليست حاجبة " للمسئولية الفردية " ٠٠٠

تكون المسئولية المجتمعية ضرورة للتفسير : لماذا حدث هذا ؟ وكيف ؟ ومتى ؟

لكن عند المحاسبة ، لابد من الاعتماد على المسئولية الفردية ، اعتمادا على تقرير المولى عز وجل (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)٠٠٠) سورة الإسراء ٠

والآن فلنمض على الطريق ٠٠٠

عندما كان ضمير ...

فى أول الثلاثينيات ، رأس وزراء مصر الطاغية الشهير : إسماعيل صدقى ، وأراد تكوين حزب سياسى يكون له عصبة فى وقت اعتمد العمل السياسى فيه إلى حد كبير على الأحزاب السياسية ، ورأى أن من مستلزمات الحزب أن تكون له جريدة تروج له بين الناس ، وتفتح الباب لاستقطاب عدد من الكتاب والمفكرين يكونون واجهة مقبولة .

وفكر الرجل فى أن يكون رئيس التحرير هو الدكتور طه حسين ، الذى كان عميدا لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) .

وقبل أ، نمضى ، نرجو القارئ أن يقفز بتصوره إلى وقتنا الراهن ، ويتخيل رد الفعل المتوقع عندما يعرض ، لا نقول رئيس الوزراء ، ولا نقول وزير تعليم ، بل رئيس جامعة ، شيئا من هذا على كبير من الأساتذة؟

أظن (وليس كل الظن إثم) ، سوف يهرع إلى تلبية الطلب ، وبأقصى سرعة ، ويعتبر ذلك إعلاء من أسهمه فى بورصة السياسة ومزاد التعليم ، وسوف يهرع إليه الناس مباركين ومهنئين على هذا التشريف ...، ربما تتملىء صفحة الاجتماعيات بالأهرام والأخبار بتهنئته على هذا الشرف العظيم !!

لكن ، ماذا كان الأمر بالنسبة لطه حسين ؟

كان أمامه سبيلان ...

أحدهما شاق ومؤلم ...

والآخر سار ومبهج ...

لكنه اختار السبيل الأول ، فرفض عرض رئيس الوزراء ، فبدأت مرحلة اضطهاد وتشريد وتجويع ، فضلا عن انسداد باب ما يصعب حصره من " المزايا " التى كانت ستغمره لو أنه قبل العرض ، فعزل الرجل من عمادة كلية الآداب !

استجاب الرجل لضميره المهنى فآثر " الحل القومى " أو الجماعى أو الوطنى الذى يؤدى به إلى السير فوق الأشواك والدبابيس ، مديرا ظهره للحل الفردى المفروش بالورود والرياحين ..

لو كان قد قبل وبدأ طريقه بقطف ثمار الموقع والمنصب ، يكون قد آثر أن يقع النفع على شخصه هو ، لكنه فى الوقت نفسه يخسر ضميره وقيمته ، لماذا ؟

لأن الحاكم المشار إليه كان ممالئا لقوى الهيمنة الاستعمارية التى كانت بريطانيا هى زعيمتها فى ذلك الوقت . وكان حاكما يرى البطش والقهر هما أداة التعامل مع ملايين هذا الشعب المسكين المقهور من بعض أبنائه ، مثلما كان مقهورا من قوى خارجية .

لكن ، والحق يقال ، كان أبناء مصر من طلاب الجامعة ، ما زالوا على طريق الحق لا يخشون فى سبيل الحق لومة لائم ..

فإذا بالمظاهرات تندلع ، وتذهب إلى العميد المعزول لتحمله على الأكتاف وتهتف بألا عميد إلا طه حسين ، وترتب على هذا أن عرف لقب " عميد الأدب العربى " طريقه ليلتصق باسم الرجل ، ويصبح منذ ذلك الوقت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها عميدا للأدب العربى ...

خسر عمادة كلية ، فوضعته جماهير الطلاب ، وكل المشتغلين بالفكر عميدا للفكر العربى إلى ما شاء الله ، حيث كان الأدب هو العمود الأساسى للفكر العربى .

وأهم من هذا وذاك ، كسب طه حسين " نفسه " ، وكسب " ضميره " ، فكسب تقدير التاريخ ، فضلا عن تقدير الناس .

وكان هذا هو الحل القومى ..الوطنى ... الجماعى

الطريق إلى الحل الفردى أوله مبهج ، سار ، مغر ٠٠٠لكن عاقبته ، أن يكون الإنسان ورقة من تلك الأوراق التى يقذف بها التاريخ فى سلة مهملاته !

والطريق الآخر ، شاق ، ومؤلم ، وعسير ٠٠٠لكن آخرته ، " قيمة مضافة " – بلغة أيامنا الحالية – تضاف إلى ثروة الوطن ، وثروة التاريخ٠

وماذا كان طريق الأنبياء والرسل إلا هذا الطريق ، لا نقول " القومى " أو " الوطنى " ، ولكنه " الإنسانى " ٠٠٠الإلهى ٠٠٠العالمى ٠٠فكسبوا للإنسانية أغلى الثمار وأمتع الأفكار وأبهج الأزهار ٠٠ ؟

وماذا كان طريق الأبطال والزعماء الذين ينيرون صفحات التاريخ ، إلا هذا الطريق ؟

الموقف نفسه وقفه (أحمد لطفى السيد) أول مدير للجامعة المصرية فى عهدها الحكومى ، إذ تساءل الرجل بضمير مهنى عالى الدرجة ، مسموع الصوت : هل يجوز للسلطة التنفيذية أن تتصرف بنقل أو عزل ، مع أحد أساتذة الجامعة من غير موافقة ورضى مديرها ؟

مرة أخرى ٠٠اقفز قارئى العزيز إلى أيامنا هذه ، وابحث عن أساتذة اعتقلوا ، بالعشرات ، وابحث عن رد فعل رؤسائهم ، ماذا كان ؟ لا شئ !

لكن لطفى السيد ثار ، وقذف بالكرسى الذى كان فى ذلك الوقت ، فريدا ووحيدا فى زمنه ، إلى بعيد ، فاستقال ٠٠٠

خسر كرسيا ٠٠وكسب نفسه ، وكسب احترام الناس ، واحتفى به التاريخ ، فوضعه حيث يجب أن يكون " أستاذا للأجيال " على مر التاريخ العربى والمصرى ٠٠٠

كان الضمير المهنى من عناصر نظيفة ٠٠صحيحة ٠٠متينة التكوين ، فكسبت الجامعة مهابة واحتراما وقوة تأثير وتقدير (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)) سورة هود ٠

فجر الغيبـــــة :

وإذا كان لعالم المصريات الشهير " برستيد " كتابه المعروف (فجـر الضمير) الذى سعى فيه إلى أن يؤكد على أن " الـضمير " – الخلقـى – شهد أول ميلاد له على أرض مصر ، فكم يعز علينا أن نستخدم التـشبيه نفسه لأن نزعم أمرا مغايرا : أن فجر " اللاضمير المهنى " قد بدأ فى فترة من أعز فترات التاريخ المصرى عظمة فى العصر الحـديث ، ألا وهـى فترة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وحتى لا يلتبس الأمر لدى البعض عند قراءة السطور التالية ، نؤكـد أننا لا نحكم حكما عاما على ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وإنما نقصر القول على جزئية بعينها ، مؤكدين وعينا العميق بعظم ما أحدثته هـذه الفتـرة مـن إضافات للضمير القومى والضمير الوطنى ، نتذكرها الآن والحسرة تمـلأ قلوبنا على افتقادها فى عصرنا الراهن .

هنا نؤكد أن ما بدأت الجامعة المصرية تشهده بعد أزمة مارس ١٩٥٤ كان زلزلة للضمير المهنى الجامعى على وجه العموم ، عندما تـم فـصل عشرات الأساتذة لا لشئ إلا لأنهم لم يكونوا علـى انـسجام فكـرى مـع توجهات ضباط الثورة ، فلقد كان ذلك إنذارا للجميع وترهيبا واضحا أن " المخالف " ليس أمامه من سبيل كى يحظى بالرضا ، إن ظل على طريـق المغايرة ، هاجرا طريق المسايرة ، ومن ثم فسوف يعـانى – فـى أقـل الاحتمالات سوءا – من عزل عن المتع بالعديد من الحقوق والمزايا كالسفر والتعيين فى المواقع الإدارية العليا ، وغير هذا وذاك من أمور تسير فـى الاتجاه نفسه .

وزاد الطين بلة ، تغلغل القوى الأمنية والسياسية بين أعضاء هيئـة التدريس ، مما عرف فى ذلك الوقت " بكتبة التقارير " ، حيث أصبح كـل عضو يخشى أن يتحدث بصراحة فى أى شأن برأى مختلـف ، لأن مـن

المحتمل أن زميلا له حاضرا فيكتب " تقريرا " ضده ، فيحدث لـه مـا لا تحمد عقباه ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد فتح هذا الباب " للكيد " من البعض للبعض ، حتى ولو كان ذلك الكيد بغير حق ٠

ولم يقتصر هذا على وسط أعضاء هيئة التدريس ، بل امتد ليشمل الطلاب ، يكتبون عن بعضهم البعض ، ويمكن أيضا أن يكتبوا عن أساتذتهم تقارير تدينهم ٠٠

وعرفت قيم متهرئة الطريق إلى المجتمع الجامعى ٠٠من نفاق ، وممالأة ، وكذب ، وحسد ، ووشاية ، ونميمة ٠٠

وكذلك بدأت قيم الجرأة ، والشجاعة ، والمبادرة ، والصراحة ، تضعف أحيانا وتختفى أحيانا أخرى ٠٠٠

وترتب على هذا وذاك ميل إلى السلبية والعزلة لدى البعض ٠٠٠

ساد شعور عام بأن عقول الناس قد خضعت " للتأميم " ، مثلما حصل بالنسبة لشركات ومصانع وإدارات وبنوك ٠٠٠

وبدأ اعتقاد يسود بأن هناك زعيما ملهما ، هو الذى يبصر الحقيقة وحده ، وهو الذى بيده الحل والربط ، وعزز من هذا أن الزعيم بالفعل كان صاحب شخصية نادرة ، وطنية ، وجرأة ، وشجاعة ، وحكمة ٠٠لكن من يستطيع أن يدعى العصمة ؟ ومن يستطيع أن يدعى أنه وحده يملك مفتاح الحكمة والصواب ؟

وركنت الجمهرة الكبرى إلى أن يقول كل لنفسه وفى نفسه " انج سعد فقد هلك سعيد " !!

ليتجه كثيرون إلى أن يكون نهج حياتهم وسلوكهم " يا للا نفسى " !!

وجدوا أنفسهم معزولين عن المشاركة فى صناعة أهم القرارات ، فبدأوا يشعرون أنهم " متفرجون " من خارج ٠٠٠

ولدى أهلنا التربويين ، رأينا عجبا ، مما ذكرنا فى أكثر من مناسبة سابقة كتابة وشفاهة ، لعمق دلالته ...

كان صاحبنا – فى أواسط الستينيات – يعد دراسته لدرجة الدكتوراه ، وفى يوم تلقى استدعاء عاجلا من أستاذه الذى كان عميدا فى الوقت نفسه للكلية ، فلما فتح باب مكتب الأستاذ ، وقبل أن يكمل طريقه فيدخل ، بادره الأستاذ بصوت عال : فينك يا أستاذ ؟ كل ما أسأل عنك مرة يقولون أنك بدار الكتب ، ومرة يقولون أنك بدار المحفوظات بالقلعة ، وأخرى يقولون أنك بمتحف التعليم ...وهكذا

وعند ذكر كل موقع ،كان صاحبنا يشعر بفخر ، فينتفخ شعوره بالذات ، فها هو أستاذه عندما يسأل عنه لا يجده فى سينما أو فى مرقص ، أو فى ملهى ، أو فى نزهة ، وإنما ساعيا دؤوبا بين مواقع فكر وبحث ودراسة ...

هكذا سارت المقدمات التى تدفع صاحبنا إلى أن تنتهى إلى نتيجة مؤكدة : أنه باحث ، مجد ، دؤوب ، نشط ..فإذا بصوت أستاذه يصرخ : حضرتك داير تجمع وثائق ؟ إنت فاكر حاتخدها بعلمك ؟ ومن من هؤلاء خدها بعلمه ؟! وأشار إلى جمع من أعضاء هيئة التدريس التربويين كان جالسا ، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة يشار إليه بالبنان !

كأن صاعقة نزلت بصاحبنا ، فطار صوابه ، وفقد اتزانه ، وكاد يسقط على الأرض من شدة المفاجأة التى كانت مزدوجة : أن يكون هذا درسا فى الضمير المهنى من معلمه ومربيه وأستاذه ، بل وقائد المسيرة فى ذلك ، ومن جانب آخر ، أن يسمع عدد من أعضاء هيئة التدريس هذا ولا يفتح الله على واحد منهم ، إن لم يكن من أجل الدفاع عن التلميذ ، الباحث المبتدئ ، فعلى الأقل دفاعا عن نفسه ، حيث أشار الأستاذ الكبير إليهم متسائلا : ومين من دول خدها بعلمه ؟

إن لم يكن هؤلاء قد حصلوا درجاتهم بعلمهم واجتهادهم ، فبماذا حصلوها؟

الحق يقال أن صاحبنا لم يسمع هذا التساؤل المذهل بأذن المصدق ، فهؤلاء الأساتذة بالفعل أصحاب كتابات وأفكار عظيمة ، ولهم بصمات لا تنكر ، لكن – فيما يبدو – أصابهم خوف المصارحة وافتقدوا الجرأة فى التزام جانب صدق الشهادة ! ألا تصدق نفس المقولة : كما يكون المجتمع يكون أفراده ؟

وفى الوقت الذى كان فيه معظم أساتذة التربية وعلم النفس قد حصلوا معرفتهم من انجلترا وأمريكا خصوصا ، حيث الفكر الليبرالى ، والرأسمالية ، وكانت البراجماتية بصفة خاصة هى المكون الفلسفى الرئيسى لفكر الجمهرة الكبرى ، كان تيار الفكر فى مصر يزخر بفيضان من الفكر الاشتراكى والعروبى ، فإذا بالجميع على وجه التقريب ينزعون العلامة التجارية " صنع فى أمريكا " و " صنع فى انجلترا " ليضعوا بدلا منها " صنع فى مصر " ، بينما " السلعة نفسها هى هى ، لكنها طليت بطلاء مصنوع من العروبة والاشتراكية ..هى نفسها أفكار ثورندايك وفرويد وديوى وكلباتريك ، أصبحت تعبر عن التوجهات الثورية فى مصر ، ليكون مظهرا آخر من مظاهر فجر اللاضمير .

ضحى الغيبة :

سيقف التاريخ طويلا – فيما بعد – أمام هذه الفترة التى أعقبت أول انتصار عربى مصرى على العدو الصهيونى فى التاريخ الحديث ، فى أكتوبر ١٩٧٣ ، حيث أن المفروض أن يلى الانتصار نهوض ونمو ، لكن الذى حدث هو العكس ، كان الانتصار العسكرى مقدمة لخطوات – ما زالت مستمرة – على طريق التراجع والهبوط !

كانت مصر شبه محاصرة معظم سنوات ثورة يوليو ، وحرم كثيرون من كثير من مباهج الدنيا القائمة ، راضين بذلك ، ثمنا للمحافظة على حرية الإرادة الوطنية واستقلال القرار الوطنى ٠

فلما أذن مؤذن السلطة الحاكمة بأن القبلة تغيرت وأصبحت الكعبة فى واشنطن ، ونتيجة لذلك سوف يغرق المصريون فى أنهار اللبن والعسل تأتيهم من منطقة الخليج ، بعدما قفزت أسعار النفط قفزات صاروخية بفعل حرب أكتوبر ٠٠اتجه طوفان من العاملين المصريين للعمل هناك ، ولم لا ؟ فقد دفعت الأنهار المتفقة من المال دول الخليج (أو ما عرف بدول اليسر) أن يقيموا المؤسسات فى مختلف المجالات ، وينشئوا المشروعات ، لكنهم لم يكونوا يملكون القوى البشرية اللازمة لذلك ، فتقدم المصريون ، مثل غيرهم مما عرف فى ذلك الوقت (بدول العسر) ليحققوا المطلوب ٠

كانت بداية مروعة " للحل الفردى " ٠٠٠المبكروب المغيب للضمير فى المهنة ، وفى كثير من المجالات والأحوال ٠

كان كل من ذهب من المصريين يحلم بأن يمتلك سكنا خاصا وسيارة ، ومدخرات معقولة لتأمين مستقبل " الأولاد " ٠٠٠

وكان هذا حلما مشروعا ، بعد طول حرمان ٠

ودخلت مصر ملايين من الدولارات والجنيهات ، وكان هذا فى شكله الخارجى ، مظهر خير عميم ، وفيض يسر عظيم ٠٠

لكننا لو قسناه بالمنظور الوطنى المجتمعى ، سوف نبصر أنه كان بداية شرور عظيمة ، كيف ؟

يؤكد إخواننا من أهل الاقتصاد أن كل قطعة نقد ، مفروض أن تكون فى مقابل " عمل " ، وإذ تنهمر ملايين على مصر دون أن تكون فى مقابل ما يماثلها من عمل داخل الأرض المصرية ، فإن هذا يؤدى إلى هبوط تدريجى فى قيمة العملة ، فإذا بالأسعار ترتفع تدرجيا ، وبمعدلات مخيفة ،

يحصد مرارتها ويكتوى بمرارتها ملايين من الناس لم تتح لهم فرص الهجرة للعمل بالخارج .

فعلى المستوى الفردى ، حل مئات الألوف من المصريين مشكلاتهم الشخصية ، وعلى المستوى القومى ، والوطنى ، حلت شرور كثيرة ، لا نريد التوسع فى بيانها ، وإنما سوف نكتفى بالإشارة إلى مثال منها ..

فى قطاع الحرف ، هاجر " الأسطوات " و " المعلمين " المهرة ، وبكثرة ، فماذا يكون الحال بالداخل ؟

كل الحرف ، دائما يكون عليها طلب دائم ، فماذا كانت النتيجة ؟

تقدم الصبية من أنصاف المهرة ، ومن أرباعهم ليحلوا محل الأسطوات والمعلمين ، فإذا بالعمل الحرفى يهبط تدريجيا مستوى وخبرة ، وفى الوقت نفسه – ويا للعجب – ترتفع أسعاره ، وكل مستوى إنتاج وعمل ، لابد أن يجر وراءه منظومة قيم ملائمة ...عندما كان العامل الحرفى على أعلى درجات المهارة ، وثم عندما أصبح على العكس من ذلك ...

ووفقا لمنطق " المنظومة المتكاملة مجتمعيا ، حدث شئ مماثل فى الجامعات على وجه العموم ، وفى كليات التربية على وجه الخصوص ...لماذا ؟

لأن الطلب على إعداد المعلم كان أكثر ، نتيجة الاتجاه إلى الانتشار المذهل للمدارس فى كل دول الخليج .

ومما ضاعف من حدة الأزمة ، أن هذا نفسه هو ما حدث فى مصر من حيث الانتشار السرطانى لكليات التربية فى كافة المحافظات دون توافر أدنى المستويات المطلوبة لتشغيل كلية جامعية محترمة ، أو حتى نصف محترمة .

ومثلما حدث فى عالم الحرف ، اندفع إلى الخارج مئات أعضاء هيئة التدريس التربويين ، فماذا تكون النتيجة ؟

أمكن لعضو واحد أن تقوم كلية بأكملها على أكتافه وحده ...

وأمكن لعضو واحد أن يعد هيئة معاونين من المعيدين والمدرسين المساعدين ، فى كافة التخصصات تحت إشرافه ، مع مزاملة ،كثيرا ما أصبحت شكلية ، من واحد من كلية أو كليات بها عدد لا بأس به من الأعضاء ..

وأمكن لمعيدين ومدرسين مساعدين أن يقوموا بالتدريس ، وبالتصحيح الكامل ، بل وأحيانا بالإدارة والتوجيه ..

ترتب على ذلك أن ضاعت فرص عديدة على الهيئة المعاونة أن يفرغوا تماما إلى الدرس والقراءة والبحث ...

وترتب على ذلك أن وجد الطلاب أنفسهم يتربون ويتعلمون على يد أنصاف مهرة ، بل وأرباعهم ...

وساد نفس القانون الاجتماعى ..كل مستوى من العمل ، يصاحبه مستوى مناظر من القيم الملائمة ، إن خيرا فخيرا ، وإن شرا فشرا ...

وعبر واحد ذات مرة عن هذا الموقف بترديده ذلك المثل الشهير : الانصاص قامت والقوالب نامت !

كان يمكن للدولة أن تحول بين هذا الطوفان للحل الفردى وبين آثاره المدمرة على البنية المجتمعية والقيمية ، كيف ؟

كان يمكن أن تتدخل كوسيط وموجه ، بأن يكون خروج العمالة المصرية عن طريق اتفاقيات مع الدول المعنية وفق شروط تحفظ للمواطن كرامته التى أهدرت هناك ، فى كثير من الأحوال ، فعاد كثيرون بحل لمشكلاتهم الشخصية ، فاقدين قدرا لا بأس به من عزة النفس والكرامة العلمية وتعود السخرة .

وكان يمكن أن يكون شرط مهم أن يُنشأ صندوق قومى تخصص لـه نسبة معينة تدفعها الجهة الخارجية تخصص لجهة العمل المنتسب إليه العامل المهاجر لتحسينه وتجهيزه ٠

وفى الوقت نفسه أن يكون هناك تشديد على شروط الخروج بحيث لا تجئ بأى حال على حساب تدمير العمل الداخلى ٠ صحيح أن قد كان هناك شرط توافر نسبة معينة ، لكن تم التحايل عليها بصور شتى ، وتدريجيا حتى أصبحت صورية لا أثر إيجابى لها إلا على العامل وحده ، مثل أن تتسع النسبة لتكون نسبة الكلية لا القسم ، ثم لتكون نسبة الجامعة ، ثم حكاية الحصول على عمل صورى للزوجة أو الزوج ، حتى يكون الخروج للمرافقة ، مما يخرجه من دائرة النسبة ، وهناك حكاية " العمل القيادى " بالخارج لتجاوز النسبة المحددة ٠٠٠وهكذا

وكان يمكن للدولة أن " تخطط " لمشروعات اقتصادية قومية تستوعب الأموال المتدفقة فتتحول إلى طاقة إنتاج بدلا من أن تكون حريق استهلاك !

لكن ، لم يكن نظام الحكم نظاما ذا بصيرة وحكمة تجعله ينظر إلى هذه الظاهرة نظرة استراتيجية ، بل نظر إليها نظرة سطحية مخجلة ، حيث كان الحاكم يردد مقولة أنه أتاح الفرصة لآلاف المصريين أن يُدخلوا لمصر أموالا طائلة ٠٠٠

بل إن الدولة نفسها ، كان " المنظور الفردى " هو الغالب عليها ، متمثلا فى أن يكون الهم الغالب هو كيفية الاستمرار على كراسى الحكم ، لا مصر الوطن ، ومصر الحاضر ، ومصر المستقبل القريب ، والبعيد ٠

ظُهر الغيبة :

هى الفترة التى نعيشها الآن ، مما يعفينا من كثير كلام ، فما من أحد منا إلا وقد عاش وشاهد وسمع وقرأ عما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما يوجع ويؤلم ، ويبث لا نقول فى قلوبنا فحسب ، بل فى كريات دمنا الحمراء والبيضاء ، خوفا وقلقا على الغد ، لا بالنسبة إلى مثلى ممن هم فى خريف العمر ، وينتظرون المغادرة فى أية لحظة ، وإنما بالنسبة لمن هم فى بدايات الطريق بصفة خاصة ، أما الفئة الوسط ، فقد أصيبت بالتلوث الميكروبى ، فأصبح رأيها ملوثا كذلك ، وأسلحتها جاهزة للدفاع والهجوم ، سعيا نحو استمرار المكاسب ، وحرصا على توالى المغانم ، وأملا فى مجئ الهواتف المبشرة بنعيم مقيم مما يتصورون أنه نعيم !

ومن ثم ، فإنى أستأذن قارئى فى أن أكتف بحكاية مشهد ، من المؤكد أنه ليس فريدا ، فمثله لابد أن يكون مكررا فى مواقع مماثلة ، ومن ثم فليس القصد " وشاية " أو " نميمة " بجهة محددة ، أو بشخص بعينه ،وإنما القصد هو " الظاهرة " ، وإن كنا اضطررنا إلى الاستشهاد بمثال واقعى :

راع صاحبنا أن مؤسسة عريقة ، قد لاح أفق تدمير محتواها الحقيقى ، وتفريغها من مهامها التاريخية ، وبحكم مفارقته لمواقع الرأى والقرار ، حيث هم وحدهم أصحاب السلطة ، وجد نفسه مستسلما لعذابات ضمير أرقه المشهد ..

وراعه كذلك أن لا قلق ظاهر ، يدفع إلى التحرك – فى الوقت المناسب – بل زعمّ بما هو غير صحيح ، وفرح بلقيمات من هنا ومن هناك ..

وراعه أكثر أن يجد – فى المقابل – حماسا وحركة دائبة فى التخطيط والتفكير والاتصالات من أجل " خطف " و " استيلاء " و " وضع

يد " على خطة تسجيل من هنا وخطة من هناك ، لبئس ما يفعلون !! حديث " السفينة " النبوى الشهير يقفز إلى الذاكرة بقوة ، ومعه دعاء من القلب : أللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون !!

وجد صاحبنا أن المسألة قد دخلت منذ سنوات فى " جب " العشوائية والشخصنة وعلو الصوت ، وتبادل المنافع الخاصة، وكان قد ابتعد طويلا عن أرض الملعب ، حيث " رحم الله امرؤا عرف قدر نفسه " ، فهو بالفعل لا يجيد " اللعب " بهذه الصورة ، قد لا يكون ذلك بفعل " ملائكية " قد يغتر بزعمها لنفسه ، وإنما ، بقلة دراية ، ربما ، أو بافتقاد السلاح ، ربما ، وبما قد يكون من عجز ٠٠ربما !

ظل عدة شهور يجمع البيانات المصورة للحال فى هذا المجال ، حتى استطاع ، بعد تصنيف وتحويل البيانات إلى معلومات ، أن يجد صورة مخيفة حقا ٠

فهذا يحظى دون غيره بنصيب الأسد ، وفق أى قاعدة ، ووفق أى قانون ؟ لا شئ ٠

وفئة تحظى بالإشراف على الهيئة المعاونة ، وفئة يقل نصيبها ، وفئة مستبعدة ، لماذا ؟ ووفق أى قاعدة ؟ وبأى منطق ؟ لا شئ !

واختلاط حابل بنابل للتخصصات بحيث يمكن أن تجد لدى واحد تعددا وتنوعا يكاد يشمل كل الفروع : وفق أى منطق ؟ ووفق أى قواعد ؟ لا شئ!

وتركز شديد فى هذا المجال دون غيره ، وغياب توافق بين الموضوعات المسجلة وخريطة مجالات الهيئة أو المؤسسة ، وفق أى قواعد ؟ وبناء على أى أساس ؟ لا شئ !!

جاء إلى الاجتماع لأول مرة منذ سنوات ، فى هذا الشأن ، وخاطب الجمع بمدخل إنسانى على اعتبار أنه يعتبر أستاذا ، ومن ثم أبا للجميع ،

وأنه أكثر من أى شخص ، أنفق معظم سنوات عمره فى خدمة المؤسسة ، وهو فى انتظار الإقلاع إلى العالم الآخر بين لحظة وأخرى ، ومن ثم فلن يصيبه ضرر ، كما لن يصيبه نفع ، وإنما النفع للجميع المستمرين ، والضرر – لا قدر الله – على الجميع المنتظرين عمرا مديدا بإذن الله .

ومن هنا فقد أكد على ضرورة الاتفاق على مجموعة من المبادئ والقواعد التى تحكم وتنظم ، وأن هذا لو تم ، سوف يكون التطبيق سهلا ميسورا ، لا يستغرق وقتا ، ولا صراعا .

وبدأ يعرض للبيانات ...

لم يكن صاحبنا متوقعا بأى حال من الأحوال أن يرى ما رآه من رد الفعل ...

يبدو ، لأن الحديث كان حديث أرقام يفحم ويكشف ، فكان الهجوم المضاد ...هذه البيانات غير صحيحة !! على الرغم من إعلان صاحبنا بأن جمع البيانات قام به أكثر من باحث ، وأنه اعتمد على كل " المصادر " : سكرتارية المؤسسة ، والإدارة المختصة فى الكلية ، وفى الجامعة ، فضلا عن مراجعات متعددة ...

كان المشكك الأكبر تلميذا يوما للأستاذ الذى قدم المعلومات ...وكانت هذه هى علامة لجملة النتائج التى يمكن حدوثها واتجاهاتها ...كان الأستاذ على علم مسبق بأن الاتفاقات كانت قد تمت ، وأن الاجتماع إنما لإضفاء الشرعية على ما تم سلفا خلف الجدران ...من أجل ماذا ؟ هل من أجل مشروعات ضخمة ؟ ...من أجل تطوير تاريخى ؟ ...من أجل استجلاب أموال طائلة ؟ ...من أجل مواقع عالية ؟

أبدا والله ..لقيمات صغيرات ، لا تكسب آكلها أستاذية مرموقة ، ولا تُخسر فاقدها مكانة ملحوظة ، وكأن القائل بالقول الشهير كان ينتظر ما

يحدث فقال " مش كل اللى يرص الصوانى يقدر يقول أنا حلوانى ، ولا كل من ركب الخيل خيال " !!

غادر صاحبنا الجمع ، غير عازم على مواصلة السير على هذا النهج ، ومن غير أن يدرى وجد دمعة تتسرب من عيناه :

حزنا على رسالة فقد الإشراف عليها ؟ أبدا ...

حسدا على باحث تم خطفه ؟ كلا ...

كمدا من حرمان من مغنم كان مأمولا ؟ أبدا ...

إنه حزن يعترى كل ذى بقية من ضمير عندما يرى ابنا يقذف أبيه بحجارة من عرض الطريق

...إنه أسى يعترى كل ذى بقية من ضمير عندما يرى مجموعة القواعد المنظمة ، والمبادئ التى لابد من الاتفاق عليها يرمى بها عرض الطريق ...

إنه ألم يعتصر قلب أم ترى ابنها يتقاسمونه ، فيشرع هذا سكينا ليقتطع جزءا ، وذاك مطواة ليأخذ قطعة ...

إنه حسرة نفس ترى من يحفرون فى قاع السفينة ، دون بصر بأن هذا يؤدى إلى إغراقها ، بكل ما فيها ومن فيها ، بدلا من أن يبذلوا جهدا فى استجلاب الماء من البحر الذى يحيط بهم من كل مكان ..

وطوال طريق العودة ، كان القول الربانى ، على لسان مريم عليها السلام لا يكاد يفارق أذنى صاحبنا لحظة ...

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣)) ، سورة مريم !